

العناصر النفسية

في سياسة العرب

حلقة من سلسلة «اقرأ» وضعها الأستاذ شفيق جبيري عضو المجمع العلمي ، وأخرجته «دار المعارف للطباعة والنشر» بمصر .
قصد المؤلف بموضوعه هذا الذي عاجله الى بيان أثر العناصر النفسية في سياسة الدول والملوك ، وان العرب لم يهتموا هذه الناحية بل تقطنوا لها ، وكشفوا عن خفاياها ، وعملوا بها ، قال : «ولقد طالعت كتباً في تاريخ العرب وأدبهم ،

فكنت في خلال هذه المطالعة أمر بأمور تدل على معرفة اصحابها بنفوس الناس ، ووقوفهم على طبائعهم وأمزجتهم وأخلاقهم ، وأمور تدل على الانحراف عن هذه المعرفة ، وقد تبين لي ان أكثر العمال والأمرأ والخلفاء الذين حسنت سياستهم للناس ، فحمد الناس ايامهم ؛ انما هم الذين خالطوا نفوس الأفراد والجماعات والأمم ومازجوها ، فانكشفت لهم أسرارها ووقفوا على مواطن الضعف والقوة فيها ، أما الذين كان نصيبهم من هذه المعرفة النفسية قليلاً ، فقد تعبوا في سياستهم ووقعوا في الورطات .

وضرب على ذلك امثالا من التاريخ : فمن الرجال : « سيد العرب محمد بن عبد الله » و « علي بن ابي طالب » و « معاوية بن ابي سفيان » و « عبد الملك بن مروان » و « الحجاج » و « موسى بن نصير » و « آخر خلفاء بني مروان » و « هشام بن عبد الملك » وغيرهم .

ومن الحادثات :

« يوم السقيفة » و « الردة » و « الثوري » و « خديعة المصاحف » و « يعة يزيد » وغيرها .

والكتاب مملوء بالمواعظ والعبر ، مكتوب بلغة بليغة « جمعية » تكاد في كثير من المواطن تنسجم والعبارة التاريخية التي استشهد المؤلف بها . وعقد فصلاً اخيراً في السياسة والمال . فكان مما قال فيه : « . . وان لاشيء يغضب الجماعات مثل كثر رجال الحكومة للمال ، واعطائه الزوج والولد والأهل والأصحاب ، ولا شيء يخوضون في ذكره في مجالسهم الخاصة والعامة ، مثل نهب الحكومات للمال ، فان سياسة من هذا الشكل تقضي على الحكومة وعلى الشعب في وقت واحد . فالحكومة التي يكون همها الأكبر سلب المال تتفتح عليها العيون ، فلا نجو من انبساط الألسن فيها ، وقد تجر سياسة من هذا النوع الى شيء انقطع من انطلاق الألسن . . . »

وختم الأستاذ كتابه بقوله : « فاذا تجرد رجال السياسة من الأخلاق ومن معرفة نفوس الناس ، ضاعت سياستهم وضاع الناس وضاعت البلاد في وقت واحد » .
 ونريد ان نخالف الأستاذ هنا في بعض آرائه ، او في شطر منها . وهو ما يتعلق « برجال السياسة من الوجهة الاخلاقية » ذلك ان الأمثال التي ضربها المؤلف ، ولا سيما سياسة معاوية في البيعة لابنه يزيد ، وقتل عبد الملك لابن عمه : عمرو بن سعيد الأشدق ، وسيرة الحجاج في اهل العراق ، كلها ختل وغدر ، لا تتعلق الى الأخلاق بسبب من الأسباب .

وكذلك السياسة القائمة في العالم اليوم ، ان هي الا سياسة كذاب وخداع . غير ان هذا يجب ان يكون - متى كان - في مصلحة الدولة والشعب ، لا في مصلحة الأفراد أنفسهم .

وكذلك نخالفه في قوله : « ان في ممارسة الحجاج لصناعة التعليم سرّاً من أصرار نباح سياسته . فقد مكّنه هذا التعليم من الوقوف على الطبائع والتغلغل الى مواطن النفوس ، وكشف الغطاء عن مواطن الترهيب والترغيب ، وعن مواطن الغضب والرضى ، والطاعة والعصيان ، وعن الزمن الذي تنفع فيه الشدة ، والزمن الذي ينفع فيه اللين » .

ان رجلاً كالحجاج ، بلغت الثورات التي قامت عليه في مدة حكمه العراق ، عدد سني ولايته - زادت ثورة او تقصت ثورة - لا يقال انه افلح ، الا اذا قيل عن دولة من هذه الدول الاستعمارية التي تحكم مستعمراتها بالشدة والقمع : انها افلحت .